الدور الثالث

التشريع في عهد صغار الصحابة، ومن تلقى عنهم من التابعين

(ويبتدىء هذا الدور من ولاية معاوية بن أبي سفيان سنة ٤١ هجرية إلى الوقت الذي ظهرت فيه عوارض الضعف على الدولة العربية أي: في أوائل القرن الثاني من الهجرة).

التصوير السياسي

يبتدىء هذا الدور باجتماع كلمة الجمهـور الإسلامي على معـاوية بن أبي سفيـان، ولذلك يسمى العام الحادي والأربعون: بعام الجماعة إلا أن جرثومة الخلاف السياسي لم تستأصل، فقد بقي من الناس من يضمر الخلاف، والكيد لمعاوية، وأهل بيته، وهم فرقتان:

الأولى: فرقة الخوارج: الذين كـان من سياستهم النعي على الملك الاستبـدادي، وأهله، ويرون أن الخلافة الإسلامية لا تنحصر في بيت معين، ولا شخص معين، وأنها لا بد أن تكـون مستندة على إرادة الجمهـور، وينتخبون من يـرونه صـالحاً لسيـاستهم، والقيام بأمرهم، ويبرؤون من عثمان، وعلي، ومعاوية جميعاً، فالأول: لمخالفته سياسة الشيخين، وحدبه على أهل بيته، ورفع أقدارهم، والأثرة بحقوق الشعب. والثاني: لرضاه بالتحكيم بينه، وبين مخالفيه. والثالث: لاستيلائه على الأمر بالقوة.

الفرقة الثانية: فرقة الشيعة: التي ترى الأمر حقاً لعلي، وأهل بيته، فكل من سلبهم هذا الحق ظالم جائر لا تجوز ولايته.

كانت سياسة معاوية مهدئة لثورات الأنفس المعادية من الفرقة الثانية، ومخففة لشدة الفرقة الأولى، ولذلك لم تنته حياته حتى شرعت الثورات تحارب وحدة الكلمة الإسلامية، فثار أهل المدينة يطلبون خلع يزيد، وخرج الحسين بن علي يريد العراق ظناً أنه يجد من شيعة أبيه عوناً على رد حقه المسلوب، وخالف عبد الله بن الزبير معتصماً بمكة، ولقد أخفق أهل المدينة في ثورتهم، وعوقبوا أشد عقاب، كما أخفق الحسين في خرجته حيث قتل قبل أن يدخل حدود العراق هو، وكثير من أهل بيته بيد أهل العراق أنفسهم، وكان ابن الزبير يلحق بهم لولا موت يزيد.

اشتدت نيران الفتن بعد موت يزيد، ولم تزل نارها تغلي حتى جاءهـا ذو العزيمـة الصادقة، والهمة العالية عبد الملك بن مروان، فأطفأ جذوتها بالقضاء على ابن الزبير بمكة، واسترجاع جميع البلاد التي كانت مراكز الثورة، وعادت الكلمة إلى الاجتماع، واختفت دعوة

الشيعة، وشدة الخوارج، ولكن الحال مختلف بين هذا الاجتماع، والاجتماع الذي كان على معاوية، فإن معاوية حاطه بلين المعاملة، وحسن المجاملة، وعبد الملك ارتكز على القوة، فإنه اعتمد في مركز الفتنة على الحجاج بن يوسف، وهو: إمام المستبدين الذين يحاولون جمع الكلمة من طريق الإذلال، والقهر، وهذا شيء قلما يبقى أثره، فقامت ضده الثورة الكبرى بزعامة عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث الكندي، وكادت تأتي على سلطان بني أمية لولا إمدادات الشام المتواصلة التي قضت بعد العناء الشديد على ثورة ابن الأشعث، ولقي الحجاج كذلك من الخوارج أياماً عصيبة، ولولا همة المهلب بن أبي صفرة، وما أصاب الخوارج من الانقسام لكان أمرهم أشد. انتهت هذه الشدائد، وجاء زمان الوليد بن عبد الملك، وهو: أحلى عصور بني أمية، وأزهاها، فقد سكنت فيه الفتن، وفتحت الفتوحات العظيمة شرقاً، وغرباً. وكان ذلك السكون مؤقتاً كالسكون الذي تعقبه العواصف الشديدة. جاء بعد الوليد أخوه سليمان، فأساء معاملة الكبار من قواد الدولة الذين كان لهم الفضل الأكبر في بسط سلطانها في المشرق، والمغرب: قتيبة بن مسلم، ومحمد بن القاسم بن محمد، وموسى بن نصير لما للأولين من الارتباط بالحجاج بن يوسف الذي كان سليمان يمقته، ولهوى سخيف بالنسبة لموسى بن نصير؛ ولا يخفى ما ينجم عن ذلك من إفساد قلوب عشائرهم، والمنتمين إليهم. أدلى بالخلافة من بعده إلى الرجل الصالح عمر بن عبد العزيز الذي أراد أن ينشر بين الناس العدل، والمساواة، وطعن على أسلافه يأخذ ما كان بأيديهم مما سماه: مظالم، ورده إلى بيت المال، وكان له رأي في الخلافة يشبه ما كان عند الخوارج، فإنه أراد إخراجها من قومه، وأن يرشح لها من هو: أصلح علماً، وديناً، ولكن ذلك لم يتم له؛ لأن المنية عاجلته، وكان من آثار لينه ترفيهه عن الناس أن قامت في عهده الدعوة السرية إلى بني العباس على رأس القرن الثاني، وخلفه يزيد بن عبد الملك، ثم أخوه هشام، وفي عهده قامت فتنة علوية شبها زيد بن علي بن الحسين مطالباً بالخلافة إلا أنه لم يعد لها العدة، فقتل دون مرامه، ثم قتل على أثره ابنه يحيى بن زيد. وفي عهده نمت الدعوة السرية العباسية التي آل أمرها إلى القضاء على الدولة الأموية.

هذه صورة مجملة لحال العالم الإسلامي في هذا الدور.

مميزات هذا الدور:

١ ــ تفرق المسلمين سياسياً: كما بينا في التصوير السياسي، فقد كان كل فريق ممن ذكرنا من الخوارج، والشيعة له ميول خاصة، فكانت شيعة علي: لها ميل إليه، وإلى أهل بيته، وكل من كان من حزبه، وكانت تنحي باللائمة على خصومه، ومحاربيه، وربما تعدوا ذلك إلى التفكير، والبراءة بالضرورة، وليس لأقوالهم، ولا لآرائهم قيمة في نظر هؤلاء؛

والخوارج: كانوا يميلون إلى أبي بكر، وعمر، ومن شايعهما، ويبرؤون من عثمان، وعلي، ومعاوية، ومن والاهم، ومن أجل ذلك كانوا لا يحتجون برأي أحد ممن يبرؤون منه. وشيعة معاوية، أو الجمهور الإسلامي: كانوا ينفرون من الفريقين، ولا يقيمون لهم وزناً، وكان لهذا التفرق تأثير كبير في الاستنباط.

٢ ـ تفرق علماء المسلمين في الأمصار الإسلامية: فإن الصحابة انتقلوا عن المدينة إلى سكنى غيرها من الأمصار منهم: المعلم، ومنهم: القارىء حتى عدت تلك البلدان الجديدة وطناً لهم، وتخرج بهم جماعة من كبار التابعين الذين شاركوهم في الفتوى، واعترف لهم الصحابة بحق المشاركة في هذا المنصب، ورفعوا من أقدارهم التي نالوها بشغلهم، واجتهادهم، ولولا وجود مكة، والمدينة، وحرمتهما عند المسلمين كافة، وكون مكة بيتاً محجوجاً ينتابه المسلمون على اختلاف نحلهم، وميولهم، لولا ذلك لزال الاتصال العلمي بين علماء الأمصار المترامية.

٣ ـ شيوع رواية الحديث: فقد زال المانع من ذلك، والذين بقوا من الصحابة بعد الخلفاء الراشدين كانوا محط الرحال من الأمصار للاستفتاء، والتعلم، وتجددت للناس حاجات اضطروا أن يبحثوا عن أحكامها لاتساع المدينة، ولا ملجأ لهم إلا الصحابة، ومن زاحمهم في الفتوى من كبار التابعين، فكانوا يفتون بما حفظوا من الأحاديث، ومنها: ما سمعوه من رسول الله ﷺ مباشرة، ومنها: ما سمعوه من كبار الصحابة، ولأصحاب الفتوى من هذا العصر عدد عظيم من الأحاديث يروى عنهم يزيد عند بعضهم على الآلاف، فمسند أبي هريرة مثلاً مكتوب في ٣١٣ ص من مسند أحمد بن حنبل، ومسند عبد الله بن عمر في ١٥٦ ص، ويقرب من ذلك غيرهما من صغار الصحابة الذين عاشوا في هذا الدور على حين أن مسند أبي بكر مكتوب في ٨٤ ص، ومسند عمر، وهو: إمام المفتين في الدور الأول مكتوب في ٤١ ص، ومسند علي، وهو: صنوه في الفتوى مكتوب في ٨٥ ص، وهذه الأحاديث لم تكن مجموعة في بلد واحد بل، ولا في كتاب واحد، فإن الأصحاب المفتين قد تفرقوا في الأمصار، كما قدمنا، فروى أهل كل مصر عن الصاحب الذي نزله، فكان في كل مصر ما ليس في الآخر. وكان في المدينة عبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين، وأبو هريرة، وكان في مكة عبد الله بن عباس، وكان في الفسطاط عبد الله بن عمرو بن العاص، وكان بالبصرة أنس بن مالك، وكان بالكوفة أبو موسى الأشعري، وتلاميذه علي بن أبي طالب، وابن مسعود كل هؤلاء يفتون الناس بما عندهم من حديث رسول الله ﷺ، وهنا تظهر مزية البيت العتيق أوضح من ظهورها في السبب السابق، وهذه المميزات الثلاثة ـ وهي: التفرق السياسي،

والتفرق المادي، وكثرة رواية الحديث مع اختصاص كل قطر بمحدثين ــ أوجدت في الفتوى خلافاً كثيراً كل منهما عامل قوي في إحداث الخلاف أوجدت للشيعة فتاوى، وللخوارج فتاوى، ولسائر الأمة فتاوى، وهذه يختلف بعضها عن بعض.

٤ ــ ظهور الكذب في الحديث عن رسول الله ﷺ: وهو ما كان يخافه أبو بكر، وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما.

روى مسلم في مقدمة صحيحه بسنده عن طاوس قال: جاء إلى ابن عباس «يعني بشير بن كعب» فجعل يحدثه، فقال له ابن عباس: عد لحديث كذا، وكذا، فعاد له. ثم حدثه، فقال له: عد لحديث كذا، وكذا، فعاد له. فقال: ما أدري أعرفت حديثي كله، وأنكرت هذا أم أنكرت حديثي كله، وعرفت هذا، فقال له ابن عباس: إنا كنا نحدث عن رسول الله ﷺ إذ لم يكن يكذب عليه، فلما ركب الناس الصعبة، والذلول تركنا الحديث عنه.

وروي عن مجاهد قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدث، ويقول: قال رسول الله ﷺ قال: فجعل ابن عباس لا يأذن لحديثه، ولا ينظر إليه، فقال: يا ابن عباس ما لي أراك لا تسمع لحديثي أحدثك عن رسول الله ﷺ، ولا تسمع. فقال ابن عباس: إنا كنا مدة إذا سمعنا رجلاً يقول: قال رسول الله ﷺ ابتدرته أبصارنا، وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعبة، والذلول لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.

وروي عن ابن أبي مليكة قال: كتبت إلى ابن عباس أسأله أن يكتب لي كتاباً، ويخفي عني، فقال ولد ناصح: أنا أختار له الأمور اختياراً، وأخفي عنه قال: فدعا بقضاء عليّ، فجعل يكتب منه أشياء، ويمر بالشيء. فيقول: ــ والله ما قضى بهذا عليّ إلا أن يكون ضل ــ.

وروي عن طاوس قال: أتى ابن عباس بكتاب فيه قضاء علي، فمحاه إلا قدر ــ وأشار سفيان بن عيينة بذراعه ــ.

وروي عن أبي إسحاق قال: لما أحدثوا تلك الأشياء بعد علي عليه السلام قال رجل من أصحاب علي: قاتلهم الله أي علم أفسدوا.

وروي عن أبي بكر بن عياش قال: سمعت المغيرة يقول: لم يكن يصدق على عليّ في الحديث عنه إلا من أصحاب عبد الله بن مسعود.

وروي عن ابن سيرين قال: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قال:

سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة، فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع، فلا يؤخذ حديثهم.

وروي عن أبي الزناد، وعبد الله بن ذكوان قال: أدركت بالمدينة مائة كلهم مأمون ما يؤخذ عنهم الحديث يقال: ليس من أهله.

وروي عن الشعبي أنه كان يقول: حدثني الحارث الأعور، وكان كذاباً.

وروي عن جرير أنه قال: لقيت جابر بن زيد الجعفي، فلم أعتد به؛ لأنه كان يؤمن بالرجعة. وروي عن زهير قال: سمعت جابراً يقول: إن عندي خمسين ألف حديث ما حدثت منها بشيء، ثم حدّث يوماً بحديث فقال: هذا من الخمسين ألفاً. وروي عن سفيان قال: سمعت جابراً يحدث بنحو ثلاثين ألف حديث ما أستحل أن أذكر منها شيئاً، وإن كان لي كذا، وكذا. وروي عن همام قال: قدم علينا أبو داود الأعمى، فجعل يقول: حدثنا البراء، وحدثنا زيد بن أرقم، فذكرنا ذلك لقتادة، فقال: كذب ما سمع منهم إنما كان إذ ذاك يتكفف الناس زمن طاعون الجارف.

وروي: أن أبا جعفر الهاشمي المدني كان يضع أحاديث كلام حق، وليست من أحاديث النبي ﷺ، وكان يرويها عن النبي ﷺ، إلى كثير من أمثال ذلك ـ ومنها تتبين الأسباب التي دعت هؤلاء الكذابين إلى أن يقولوا على رسول الله ﷺ ما لم يقل ـ قال النووي في شرح صحيح مسلم نقلاً عن القاضي عياض رحمه الله ـ: الكذابون ضربان: أحدهما: ضرب عرفوا بالكذب في حديث رسول الله ﷺ، وهم: أنواع منهم: من يضع عليه ما لم يقله أصلاً إما: ترفعاً، واستخفافاً كالزنادقة، وأشباههم ممن لم يرج للدين وقاراً. وإما: حسبة بزعمهم، وتديناً كجهلة المتعبدين الذين وضعوا الأحاديث في الفضائل، والرغائب. وإما: إغراباً، وسمعة كفسقة المحدثين. وإما: تعصباً، واحتجاجاً كدعاة المبتدعة، ومتعصبي المذاهب، وإما: اتباعاً لهوى أهل الدنيا فيما أرادوه، وطلب لهم العذر لهم فيما أتوه. وقد تعين جماعة من كل طبقة من هذه الطبقات عند أهل الصنعة، وعلم الرجال.

ومنهم: من لا يضع متن الحديث، ولكن ربما وضع للمتن الضعيف إسناداً صحيحاً مشهوراً.

ومنهم: من يقلب الأسانيد، أو يزيد فيها، ويعتمد ذلك إما: للإعراب على غيره، وإما: لرفع الجهالة عن نفسه.

ومنهم: من يكذب، فيدعي سماع ما لم يسمع، ولقاء من لم يلق، ويحدث بأحاديثهم الصحيحة عنهم.

ومنهم: من يعمد إلى كلام الصحابة، وغيرهم، وحكم العرب، والحكماء، فينسبها إلى النبي ﷺ.

كثير من هؤلاء وجدوا في هذا الدور، وما الظن بمثل جابر الجعفي يزعم أن عنده خمسين ألف حديث، وفي بعض الروايات: سبعين ألفاً يقول إنه يرويها عن محمد الباقر بن الحسين بن علي، ووصل الحال بابن عباس، والإسلام لا يزال غضاً أن يقول ما قال مما قدمنا ذكره.

إن الاختلاف السياسي، والتعصب للمذاهب جعل كثيراً من الغالين في مذاهبهم يستبيحون لأنفسهم أن يؤيدوا ما عندهم بأحاديث يروونها كذباً عن رسول الله ﷺ، فكان هناك شيعة، وخوارج، وجمهور، وقد وجد الخبيث في كل فرقة من هؤلاء، وإن كان الخوارج أقل هذه الفرق كذباً؛ لأن من مبادئهم تكفير مرتكب الكبيرة، والكذب على رسول الله أكبر الكبائر، فمن الصعب أن ترى منهم من يقدم عليه.

وهذه المشكلة جعلت مهمة أهل الحديث في الدور الآتي شاقة جداً، وسترى كيف فعلوا فيما أرادوا من تخليص السنة مما اختلط بها، ومقدار نجاحهم في ذلك.

٥ ـ ظهور عدد كبير من متعلمي الموالي: فقد دخل في الإسلام كثير من أبناء فارس، والروم، ومصر، وكانوا يعرفون بالموالي؛ لأن من أسلم على يد رجل، فهو: مولاه، ومنهم: من كان ضرب عليه الرق، ومنهم: من أسلم، ولم يجر عليه رق، وأخذ المسلمون كثيراً من أبناء أسرى، وربوهم تحت كنفهم، وعلموهم القرآن، والسنة، فحفظوا، وفهموا، واستعانوا بما عندهم من الكتابة، والنباهة على الإجادة، وقد اضطر الجمهور الإسلامي العربي مع عصبيته الجنسية الشديدة في ذلك الوقت إلى احترامهم، والرضوخ لفتاويهم، ورواية الحديث عنها، وقد وجدوا في جميع الأمصار الإسلامية، وشاركوا الصحابة، وكبار التابعين من العرب في العلم، والتعليم، فقلما يذكر عبد الله بن عباس إلا، ومعه راويته، ومولاه عكرمة، وقلما يذكر عبد الله بن عمر إلا، ومعه مولاه نافع، وقلما يذكر أنس بن مالك إلا، ومعه محمد بن سيرين، وكثيراً ما يذكر أبو هريرة، ومعه عبد الرحمن بن هرمز الأعرج راويته، وهؤلاء الأربعة: أكثر الصحابة حديثاً، وفتوى، ولمواليهم الأربعة فضل كبير، ومن الخطأ: أن يفهم أن حظ العرب من الفقه، ورواية الحديث كان أحسن، وإنما كانت المشاركة، فلم يوجد مصر إلا، وفيه من الفريقين عدد وافر إلا أن بعض الأمصار كان الامتياز فيه للموالي كالبصرة، وعلى رأسهم الحسن بن أبي الحسن البصري، وفي بعضها كان الامتياز لفقهاء العرب كالكوفة.

٦ ـ بدء النزاع بين الرأي الحديث، وظهور أنصار لكل من المبدأين: قدمنا أن كبار الصحابة كانوا في العصر الأول يستندون في فتواهم إلى الكتاب، ثم إلى السنة، فإن أعجزهم ذلك أفتوا بالرأي، وهو: القياس بأوسع معانيه، ولم يكونوا يميلون إلى التوسع في الأخذ بالرأي لذلك أثر عنهم ذم الرأي، وقد بينا فيما مضى ما الرأي المعمول به، وما الرأي المذموم. ولما جاء هذا الخلف وجد منهم: من يقف عند الفتوى على الحديث، ولا يتعداه يفتي في كل مسألة بما يجده من ذلك، وليست هناك روابط تربط المسائل بعضها ببعض، ووجد فريق آخر يرى: أن الشريعة معقولة المعنى، ولها أصول يرجع إليها، فكانوا لا يخالفون الأولين في العمل بالكتاب، والسنة ما وجدوا إليهما سبيلاً، ولكنهم لاقتناعهم بمعقولية الشريعة، وابتنائها على أصول محكمة فهمت من الكتاب، والسنة كانوا لا يحجمون عن الفتوى برأيهم فيما لم يجدوا فيه نصاً، كما كان يفعل الفريق الأول، وفوق ذلك كانوا يحبون معرفة العلل، والغايات التي من أجلها شرعت الأحكام، وربما ردوا بعض أحاديث لمخالفتها لأصول الشريعة، ولا سيما إذا عارضتها أحاديث أخرى، وكان أكثر ظهور هذا المبدأ في أهل العراق. سأل ربيعة بن فروخ سعيد بن المسيب شيخ فقهاء أهل المدينة من التابعين، عن عقل أصابع المرأة: ما عقل الأصبع الواحدة؟ فقال: عشرة من الإبل، فقال: فأصبعان؟ قال: عشرون قال: فثلاث؟ قال: ثلاثون. قال: فأربع! قال: عشرون. قال: فعندما عظم جرحها نقص عقلها. فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ هي السنة. وذلك أن سعيداً كان يقول: إن المرأة تعاقل الرجل إلى ثلث الدية، فإذا زادت على ذلك كانت ديتها على النصف من ديته، ومعنى تعاقل الرجل: تكون ديتها كديته، فأجرى ذلك على ظاهره، ولو أدت إلى نتيجة غير معقولة؛ لأنه لا شأن للعقل في التشريع، فالأصابع الثلاث ديتها أقل من ثلث الدية، ولذلك كان دية أصابعها الثلاثة ثلاثون رأساً أما الأربعة، فهي: أكثر من الثلث، ولذلك تكون ديتها على النصف من دية الرجل يعني: عشرين رأساً، وهذه نتيجة لم يفهم ربيعة وجهها، فاستفهم سعيداً عنها لكن سعيداً لم يعجبه هذا السؤال، وأخذ منه أن ربيعة ممن يجعل للرأي مجالاً في التشريع مع وجود النص، كما شاع عن أهل العراق، ولذلك قال له: أعراقي أنت؟ والعراقيون يقولون في هذا: ديتها على النصف من دية الرجل في الأطراف، كما في النفس، ويرفضون مثل هذه النتيجة التي يحيلها العقل، ويقولون: إن المراد بالسنة في قول سعيد: إنها السنة سنة زيد بن ثابت، فإنه كان يفتي بذلك.

وجد بذلك أهل حديث، وأهل رأي: الأولون: يقفون عند ظواهر النصوص بدون بحث في عللها، وقلما يفتون برأي، والآخرون: يبحثون عن علل الأحكام، وربط المسائل بعضها ببعض، ولا يحجمون عن الرأي إذا لم يكن عندهم أثر، وكان أكثر أهل الحجاز: أهل حديث، وأكثر أهل العراق: أهل رأي، ولذلك قال سعيد بن المسيب لربيعة لما سأله عن علة الحكم: أعراقي أنت؟.

وممن اشتهر بالرأي، والقياس من فقهاء العراق: إبراهيم بن يزيد النخعي الكوفي فقيه العراق، وهو: شيخ حماد بن أبي سليمان شيخ أبي حنيفة الفقيه المقدم من أهل العراق، وقد أخذ إبراهيم الفقه عن خاله علقمة بن قيس النخعي الكوفي، وهو: من متقدمي فقهاء التابعين من الطبقة الأولى منهم، وكان أنبل أصحاب ابن مسعود. وكان إبراهيم يعاصر عامر بن شراحيل الشعبي محدث الكوفة، وعالمها، وكان الأمر بعيداً بينهما، فإن الشعبي كان صاحب حديث، وأثر إذا عرضت له الفتيا، ولم يجد فيها نصاً انقبض عن الفتوى، وكان يكره الرأي.

وقال مرة: أرأيتم لو قتل الأحنف، وقتل معه صغير أكانت ديتهما سواء أم يفضل الأحنف لعقله، وحلمه؟ قالوا: بلْ سواء، قال: فليس القياس بشيء. فالفرق بين الرجلين: أن الشعبي، ومن على طريقته من رجال الحديث، والأثر: يقفون عند السنة لا يتعدونها، وينقبضون أن يقلوا بآرائهم فيما فيه سنة، وما ليس فيه سنة، ولا يحكم العقل في شيء من ذلك، وليس هناك مصالح منضبطة اعتبرها الشارع في تشريعه يرجعون إليها عند الفتيا كأنه لا رابطة بين الأحكام الشرعية، وقد تألم سعيد بن المسيب شيخ فقهاء أهل الحديث من ربيعة لما سأله عن المعقول في دية الأصابع، وكان أهل المدينة يسمون ربيعة هذا: ربيعة الرأي لما يبحث في علل الشريعة حتى قال عبد الله بن سوار القاضي: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة بالرأي، فقيل له: ولا الحسن، وابن سيرين؟ فقال: ولا الحسن، وابن سيرين. وأما إبراهيم النخعي، ومن على طريقته من فقهاء العراق، وبعض فقهاء المدينة: فإنهم كانوا يستندون أيضاً في فتاويهم إلى الكتاب، والسنة إلا أنهم فهموا أن هذه الشريعة لا بد أن تكون لها مصالح مقصودة التحصيل من أجلها شرعت، وصح لهم اعتبار هذه المصالح، فجعلوها أساساً للاستنباط فيما لم يروا فيه كتاباً، ولا سنة، ولهم في ذلك سلف صالح، فإن الصحابة قاسوا في كثير من المسائل التي عرضت لهم، ولم يكن عندهم فيها كتاب، ولا سنة، ولم تكن آراؤهم إلا نتيجة اعتبار تلك المصالح.

كان أهل الحديث يعيبون أهل الرأي بأنهم يتركون بعض الأحاديث لأقيستهم، وهذا من الخطأ عليهم، ولم نر فيهم من يقدم قياساً على سنة ثبتت عنده إلا أن منهم من لم يرو له الأثر في الحادثة، أو روي له، ولم يثق بسنده، فأفتى بالرأي، فربما كان ما أفتى به مخالفة لسنة لم تكن بمعلومة له، أو علمت، ولكنه لم يثق بروايتها، أو عارضها ما هو: أقوى في نظره، كما روى سفيان بن عيينة قال: اجتمع أبو حنيفة، والأوزاعي في دار الحناطين بمكة، فقال الأوزاعي لأبي حنيفة: ما بالكم لا ترفعون أيديكم عند الركوع، وعند الرفع منه؟ فقال أبو حنيفة: لأجل أنه لم يصح عن رسول الله ﷺ فيه شيء، قال: كيف، وقد حدثني

الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن رسول الله ﷺ: أنه كان يرفع يديه إذا افتتح الصلاة، وعند الركوع، وعند الرفع. فقال أبو حنيفة: حدثنا حماد، عن إبراهيم، عن علقمة، والأسود، عن ابن مسعود: أن رسول الله ﷺ كان لا يرفع يديه إلا عند افتتاح الصلاة، ولا يعود إلى شيء من ذلك، فقال الأوزاعي: أحدثك، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، وتقول: حدثني حماد، عن إبراهيم؟ فقال له أبو حنيفة: كان حماد أفقه من الزهري، وكان إبراهيم أفقه من سالم، وعلقمة ليس بدون ابن عمر، وإن كان لابن عمر صحبة، أو له فضل صحبة، فالأسود له فضل كثير، وعبد الله هو عبد الله. فسكت الأوزاعي.

وهذه المحاورة بدون أن نناقش أقوالها تدل على ما كان لكل فريق عند الآخر، وتدل على أن الجميع واقفون عند حد السنة حتى وثقوا بها من روايتها.

ومن ذلك: أن أهل الرأي كانوا يفتون في ضمان المصراة: بأن المشتري يردها، وقيمة ما احتلبه من لبنها، وأهل الحديث كانوا يفتون: بأن يردها، وصاعاً من تمر، لحديث رواه أبو هريرة في ذلك، والمصراة هي: الشاة التي يختزن اللبن في ثديها بربطه حتى يظن الرائي أنها غزيرة اللبن، فأهل الرأي يقولون: إن قانون ضمان المتلفات في الشريعة إنما هو: أن يرد مثلها إن كانت من ذوات الأمثال، أو قيمتها إن كانت من ذوات القيمة، وهذا الخبر يجعل المتلف مقدراً بما ليس بمثل، ولا قيمة له، وهذا يوجد شكاً في صحة الخبر إن كان بلغهم، والظاهر أنه لم يبلغهم؛ لأنا رأيناهم كثيراً ما ورد عليهم أحاديث مخالفة للقوانين العامة، فعملوا بها، وسموها استحساناً.

وعلى الجملة، فقد امتاز هذا العصر بانقسام المفتين من حزب الجمهور فيه إلى أهل حديث، وأهل رأي، إلا أنه لم تكن هناك قواعد معلومة واضحة للمجتهدين؛ لأن الفقه كان إلى ذلك الوقت لم يأخذ الدرجة اللائقة به من التدوين، والترتيب.

الاجتهاد في ذلك الدور
الكتاب، والسنة

أما الكتاب: فكان الله سبحانه قد أتم حفظه بما أجراه على أيدي الخلفاء الراشدين مما قسمناه، فكان يقرأ حسبما هو مكتوب في مصاحف عثمان، ومن هذه المصاحف نقلت المصاحف الكثيرة، وقد اشتهر كثير من الصحابة، والتابعين بحفظه، وإقرائه، فتلقاه منهم من لا يحصون كثرة في جميع الأمصار، وما القراء الذين اشتهر بعضهم في أواخر هذا الدور إلا قطرة من معين حفاظ القرآن، ومعلميه.

أما السنة: فمع كثرة روايتها في هذا الدور، وانقطاع فريق من علماء التابعين لروايتها لم يكن لها حظ من التدوين إلا أنه لم يكن من المعقول أن يستمر هذا الأمر طويلاً مع اعتبار الجمهور للسنة: أنها مكملة للتشريع ببيانها للكتاب، ولم يكن ظهر بين الجمهور من يخالف هذا الرأي، وأول من تنبه لهذا النقص الإمام عمر بن عبد العزيز على رأس المائة الثانية من الهجرة، فقد كتب إلى عامله بالمدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم: أن انظر ما كان من حديث رسول الله ﷺ، أو سنته، فاكتبه، فإني خفت دروس العلم، وذهاب العلماء، رواه مالك في الموطأ من رواية محمد بن الحسن، وأخرج أبو نعيم في تاريخ أصبهان، عن عمر بن عبد العزيز: أنه كتب إلى أهل الآفاق انظروا إلى حديث رسول الله ﷺ، فاجمعوه.

وامتاز من رجال هذا الدور: محمد بن مسلم بن شهاب الزهري بكتابة السنة، وإملائها، وهو: من أكابر حفاظ السنة. ويظهر من حديث ابن عباس السابق أنه كان عند شيعة علي كتاب فيه أقضيته، وذلك ما لم يثق ابن عباس بصحته، وقال: والله ما قضى بهذا عليّ إلا أن يكون ضل، ومحا منه كثيراً، ولم يبق إلا أقله.

أشهر المفتين من هذا الدور

من أهل المدينة:

١ ـ أم المؤمنين عائشة الصديقة:

هي: عائشة بنت أبي بكر الصديق، وزوج رسول الله ﷺ تزوجها قبل الهجرة بسنتين، وكان عمرها فيما يروى سبع سنين، وبنى بها بالمدينة، وهي: بنت تسع، وكانت أحب نسائه إليه. قال عطاء بن أبي رباح: كانت عائشة من أفقه الناس، وأحسن الناس رأياً في العامة، وقال عروة: ما رأيت أحداً أعلم بفقه، ولا بشعر من عائشة، وروت عن النبي ﷺ كثيراً، ومسندها في مسند أحمد بن حنبل من ص ٢٩ إلى ص ٢٨٢ أي: في ٢٥٣ صفحة، وعلى

رواياتها المعول في معرفة ما كان رَسول آللَّهِ ﷺ يفعل في بيته، ولها مع ذلك أحاديث في كل طرف من أطراف الفقه، وكان فقهاء الصحابة يرجعون إليها، حدث عنها كثير من الصحابة، والتابعين، وأكثر الناس رواية عنها: أهل بيتها عروة بن الزبير، وهو: ابن أختها، والقاسم بن محمد، وهو: ابن أخيها توفيت سنة ٥٧ من الهجرة.

٢ ـ عبد الله بن عمر:

هو: عبد الله بن عمر بن الخطاب العدوي القرشي أسلم مع أبيه، وهو صغير لم يبلغ الحلم، وكان في غزوة بدر صغيراً، فلم يشهدها، وأول مشاهده الخندق، وشهد غزوة مؤتة مع جعفر بن أبي طالب، وشهد اليرموك، وفتح مصر، وأفريقية، وكان كثير الاتباع لآثار رسول الله ﷺ حتى إنه ينزل منازله، ويصلي في كل مكان صلى فيه، وحتى أن النبي ﷺ نزل تحت شجرة، فكان ابن عمر يتعاهدها بالماء لئلا تيبس، وكان ابن عمر من أئمة المسلمين، وعلماً من أعلام الفتوى، وكان شديد الاحتياط، والتوقي لدينه في الفتوى، وكل ما تأخذ به نفسه حتى إنه ترك المنازعة في الخلافة مع كثرة ميل أهل الشام إليه، ومحبتهم له، ولم يقاتل في شيء من الفتن، ولم يشهد مع علي شيئاً من حروبه حين أشكلت عليه، ثم كان بعد ذلك يندم على ترك القتال معه، وكان جابر بن عبد الله يقول: ما منا إلا من مالت به الدنيا، ومال بها ما خلا عمر، وابنه عبد الله. روى الحديث عن رسول الله صلى الله وآله وسلم، فأكثر، وروى عن كبار الصحابة، وروى عنه كثير من التابعين، وأكثرهم رواية عنه: ابنه سالم، ومولاه نافع قال الشعبي: كان ابن عمر جيد الحديث، ولم يكن جيد الفقه، وأقام بعد رسول الله ﷺ ستين سنة يفتي الناس في الموسم، وغيره، وتوفي سنة ٧٣ من الهجرة.

٣ ـ أبو هريرة:

هو: أبو هريرة عبد الرحمن بن صخر الدوسي قدم على النبي ﷺ مهاجراً إثر غزوة خيبر سنة سبع من الهجرة، ولازمه حتى لحق بربه روى عنه الحديث، فأكثر، وروى عن الصحابة، وروى عنه كثير من التابعين أكثرهم: سعيد بن المسيب صهره، والأعرج مولاه، وكثير غيرهما، وكان من أوعية العلم، ومن كبار أئمة الفتوى مع الجلالة، والعبادة، والتواضع، وكان من أحفظ الصحابة، وروي عن ابن عمر أنه قال: يا أبا هريرة إن كنت لألزمنا لرسول الله ﷺ، وأعلمنا بحديثه. توفي سنة ٥٨ من الهجرة.

هؤلاء الثلاثة هم: أكثر الصحابة من أهل المدينة حديثاً، وفتوى في هذا الدور، وعليهم يدور علم أهل المدينة، وعنهم أخذ كبار التابعين المدنيين، وإنا ذاكرون أشهرهم.

٤ ــ سعيد بن المسيب المخزومي:

ولد لسنتين مضتا من خلافة عمر، وسمع من كبار الصحابة، وكان واسع العلم وافر الحرمة متين الديانة قوالاً بالحق فقيه النفس، قال ابن عمر: سعيد بن المسيب أحد المفتين، وقال قتادة: ما رأيت أحداً أعلم من سعيد بن المسيب وقال علي بن المديني: لا أعلم في التابعين، أوسع علماً من سعيد هو عندي: أجل التابعين، وكان لا يقبل جوائز السلطان. وجل روايته المسند عن أبي هريرة. وكان الحسن البصري إذا أشكل عليه شيء كتب إلى سعيد بن المسيب يسأله. توفي سنة ٩٤ على أحد الأقوال.

٥ ــ عروة بن الزبير بن العوام الأسدي:

ولد في خلافة عثمان، وروى الحديث عن كثير من الصحابة، وتفقه بخالته عائشة، وكان عالماً بالسيرة حافظاً ثبتاً. حدث عنه ابنه هشام، وبقية أبنائه، وروى عنه الزهري، وأبو الزناد، وغيرهما من علماء المدينة، وقال الزهري: رأيته بحراً لا ينزف. توفي سنة ٩٤ هـ.

٦ ــ أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام المخزومي:

ولد في خلافة عمر روى عن أبيه، وعن غيره من الصحابة، وروى عنه الزهري، وغيره من صغار التابعين، وكان ثقة حجة فقيهاً إماماً كثير الرواية سخياً، وكان صالحاً عابداً متألهاً كان يقال له: راهب قريش. توفي بالمدينة سنة ٩٤.

٧ ــ علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب الهاشمي؛ هو: الإمام الرابع من أئمة الشيعة الإمامية، ويعرف: بزين العابدين روى عن أبيه، وعمه الحسن، وعائشة، وابن عباس، وغيرهم قال الزهري: ما رأيت أحداً كان أفقه من علي بن الحسين، ولكنه كان قليل الحديث، وقال ابنه: ما رأيت هاشمياً أفضل منه، وعن ابن المسيب: ما رأيت أورع منه. مات سنة ٩٤.

٨ ــ عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود: أخذ عن عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس، وغيرهم، وكان مع إمامته في الفقه، والحديث شاعراً محسناً، وهو: مؤدب عمر بن عبد العزيز قال الزهري: كان عبيد الله من بحور العلم. مات سنة ٩٨.

٩ ــ سالم بن عبد الله بن عمر: سمع أباه، وعائشة، وأبا هريرة، وسعيد بن المسيب، وغيرهم، وكان أبوه معجباً به، وكان يقول له:

يلومونني في سالم وألومهم وجلدة بين العين والأنف سالم

قال مالك: لم يكن أحد في زمانه أشبه منه بمن مضى من الصالحين في الزهد، والفضل. وكان على سمت أبيه، وعدم رفاهيته. توفي سنة ١٠٦.

١٠ ــ **سليمان بن يسار مولى أم المؤمنين ميمونة**: روى عنها، وعن عائشة، وأبي هريرة، وابن عباس، وزيد بن ثابت، وغيرهم قال الحسن بن محمد بن الحنفية: هو أفهم عندنا من سعيد بن المسيب، وقيل: كان المستفتي يأتي سعيد بن المسيب، فيقول: عليك بسليمان بن يسار، وقال مالك: كان من علماء الناس. مات سنة ١٠٧.

١١ ــ **القاسم بن محمد بن أبي بكر**: سمع عمته عائشة، وابن عباس، وابن عمر، وغيرهم. وربته عمته. قال يحيى بن سعيد: ما أدركنا بالمدينة أحداً نفضله على القاسم. وقال أبو الزناد: ما رأيت فقيهاً أعلم من القاسم، وما رأيت أحداً أعلم بالسنة منه، وقال ابن عيينة: كان القاسم أعلم أهل زمانه، وقال ابن سعيد: كان إماماً فقيهاً ثقة رفيعاً ورعاً كثير الحديث، وعن عمر بن عبد العزيز قال: لو كان لي من الأمر شيء لاستخلفت أعيمش بني تيم يعني: القاسم. توفي سنة ١٠٦.

١٢ ــ **نافع مولى عبد الله بن عمر**: روى عن مولاه، وعائشة، وأبي هريرة، وغيرهم، وبعثه عمر بن عبد العزيز إلى مصر، ليعلم أهلها السنة، وكان في حياة سالم لا يفتي. خدم عبد الله بن عمر ثلاثين سنة، وهو: ديلمي الأصل. توفي سنة ١١٧.

١٣ ــ **محمد بن مسلم المعروف: بابن شهاب الزهري**: ولد سنة ٥٠، وحدث عن عبد الله بن عمر، وأنس بن مالك، وسعيد بن المسيب، وغيرهم، قال الليث بن سعد: ما رأيت عالماً قط أجمع من الزهري يحدث في الترغيب، فيقول: لا يحسن غيره، وإن حدث عن العرب، والأنساب قلت: لا يحسن إلا هذا، وإن حدث عن القرآن، والسنة، فكذلك، وقال عمر بن عبد العزيز: لم يبق أحد أعلم بسنة ماضية من الزهري، وقال مالك: بقي ابن شهاب، وما له في الدنيا نظير، وقال الليث: كان من أسخى الناس، وكان يؤدب ولد هشام بن عبد الملك، ويجالسه، وقد سأله هشام أن يملي على بعض ولده شيئًا، فأملى عليه أربعمائة حديث، ثم لقيه بعد شهر، أو نحوه، فقال للزهري: إن ذلك الكتاب قد ضاع، فدعا بكتاب، فأملاها عليه، ثم قابل ذلك بالكتاب الأول، فما غادر حرفاً واحداً. وقال مالك: قدم ابن شهاب المدينة، فأخذ بيد ربيعة، ودخلا إلى بيت الديوان، فلما خرجا وقت العصر خرج ابن شهاب، وهو يقول: ما ظننت بالمدينة مثل ربيعة، وخرج ربيعة يقول: ما

ظننت أن أحداً بلغ من العلم ما بلغ ابن شهاب؛ وقال ابن شهاب: قال لي القاسم بن محمد: أراك تحرص على العلم أفلا أدرك على وعائه قلت: بلى قال: عليك ببنت عبد الرحمن، فإنها كانت في حجر عائشة، فأتيتها، فوجدتها بحراً لا ينزف. توفي سنة ١٢٤.

١٤ ــ **أبو جعفر بن محمد بن علي بن الحسين: المعروف: بالباقر**، وهو: الإمام الخامس من أئمة الشيعة الإمامية: روى عن أبيه، وجابر، وابن عمر، وغيرهم، كان سيد بني هاشم في زمانه. توفي سنة ١١٤.

١٥ ــ **أبو الزناد عبد الله بن ذكوان فقيه المدينة**: سمع أنس بن مالك، وكثيراً من التابعين قال الليث بن سعد: رأيت خلفه ثلثمائة تابع بين طالب فقه، وطالب شعر، وصنوف قال: ثم لم يلبث أن بقي وحده، وأقبلوا على ربيعة الرأي، وقال أبو حنيفة: رأيت ربيعة، وأبا الزناد، وأبو الزناد أفقه الرجلين، وكان سفيان يسمي أبا الزناد: أمير المؤمنين في الحديث. توفي سنة ١٣١.

١٦ ــ **يحيى بن سعيد الأنصاري**: حدث عن أنس بن مالك، وعن كثير من التابعين، قال يحيى القطان: هو مقدم على الزهري اختلف على الزهري، ولم يختلف عليه، وقال أحمد بن حنبل: يحيى بن سعيد أثبت الناس، وقال وهيب: قدمت من المدينة، فلم ألق بها أحد إلا، وأنت تعرف، وتنكر غير يحيى بن سعيد، ومالك. توفي سنة ١٤٦.

١٧ ــ **ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ**: روى عن أنس بن مالك، وكثير من التابعين كان إماماً حافظاً فقيهاً مجتهداً بصيراً بالرأي، ولذلك يقال له: ربيعة الرأي، وقال يحيى بن سعيد: ما رأيت أحداً أفطن من ربيعة، وقال سوار بن عبد الله القاضي: ما رأيت أحداً أعلم من ربيعة بالرأي، قلت: ولا الحسن، وابن سيرين؟ قال: ولا الحسن، وابن سيرين، وكان من الأجواد، وهو: الذي تفقه به مالك بن أنس الإمام. توفي سنة ١٣٦.

ومن أهل مكة:

١ ــ **عبد الله بن عباس بن عبد المطلب**: ولد قبل الهجرة بسنتين، ودعا له رسول الله ﷺ أن يفقهه الله في الدين، ويعلمه التأويل، وقال ابن مسعود: نعم ترجمان القرآن ابن عباس لو أدرك أسناننا ما عاشره منا أحد، وقال معمر: عامة علم ابن عباس من ثلاثة: عمر، وعلي، وأبي بن كعب، وروي عنه أنه قال: كنت أسمع بالرجل عنده الحديث، فآتيه، فأجلس حتى يخرج، فأسأله، ولو شئت أن أستخرجه لفعلت، وعلى ابن عباس يدور علم أهل مكة في التفسير، والفقه. توفي بالطائف سنة ٦٨.

٢ ـ **مجاهد بن جبر مولى بني مخزوم**: سمع سعداً، وعائشة، وأبا هريرة، وابن عباس، ولزمه مدة، وقرأ عليه القرآن، وكان أحد أوعية العلم قال مجاهد: عرضت القرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقفه عند كل آية أسأله فيم نزلت، وكيف كانت، وقال قتادة: أعلم من بقي بالتفسير مجاهد، وقال: ربما أخذ لي ابن عمر بالركاب. توفي سنة ١٠٣.

٣ ـ **عكرمة مولى ابن عباس**: روى عنه، وعن عائشة، وأبي هريرة، وغيرهم، وتفقه بابن عباس، وقيل لسعيد بن جبير: أتعلم أحداً أعلم منك قال: نعم، عكرمة، وعن الشعبي قال: ما بقي أحد أعلم بكتاب الله من عكرمة، وقد تكلم فيه: بأنه يرى رأي الخوارج، ومن ثم لم يخرج له مالك الإمام، ولا مسلم بن الحجاج، مات سنة ١٠٧.

٤ ـ **عطاء بن أبي رباح مولى قريش**: ولد في خلافة عمر، وسمع عائشة، وأبا هريرة، وابن عباس، وغيرهم كان أسود مفلفلاً فصيحاً كثير العلم من مولدي الجند. قال أبو حنيفة: ما رأيت أفضل من عطاء. وقال الأوزاعي: مات عطاء يوم مات، وهو: أرضى أهل الأرض عند الناس، وقال إسماعيل بن أمية: كان عطاء يطيل الصمت، فإذا تكلم خيل إلينا أنه يؤيد. وقال ابن عباس: يا أهل مكة تجتمعون عليّ، وعندكم عطاء؟ توفي سنة ١١٤.

٥ ـ **أبو الزبير محمد بن مسلم بن تدرس مولى حكيم بن حزام**: حدث عن ابن عباس، وابن عمر، وسعيد بن جبير، وغيرهم قال يعلى بن عطاء: حدثنا أبو الزبير، وكان أكمل الناس عقلاً، وأحفظهم، وقال عطاء: كنا نكون عند جابر، فيحدثنا، فإذا خرجنا تذاكرنا، فكان أبو الزبير أحفظنا للحديث، توفي سنة ١٢٧.

ومن أهل الكوفة:

١ ـ **علقمة بن قيس النخعي فقيه العراق**: ولد في حياة رسول الله ﷺ، وسمع عن عمر، وعثمان، وابن مسعود، وعلي، وتفقه بابن مسعود، وكان أنبل أصحابه. روي عن ابن مسعود أنه قال: ما أقرأ شيئاً، وما أعلم شيئاً إلا علقمة يقرؤه، أو يعلمه قال قابوس بن أبي ظبيان: قلت لأبي: لأي شيء كنت تدع الصحابة، وتأتي علقمة؟ قال: أدركت ناساً من أصحاب رسول الله ﷺ، وهم يسألون علقمة، ويستفتونه. قال الذهبي: كان فقيهاً إماماً بارعاً طيب الصوت بالقرآن ثبتاً فيما ينقل صاحب خير، وورع كان يشبه ابن مسعود في هديه، ودله، وسمته، وفضله، مات سنة ٦٢.

٢ ـ **مسروق بن الأجدع الهمداني** الفقيه أحد الأعلام: وهو: ابن أخت عمرو بن معد يكرب أخذ عن عمر، وعلي، وابن مسعود. قال الشعبي: ما علمت أحداً كان أطلب للعلم منه، وكان أعلم بالفتوى من شريح، وكان شريح يستشيره، وكان مسروق لا يحتاج إلى شريح. توفي سنة ٦٣.

٣ ـ **عبيدة بن عمرو السلماني المرادي**: أسلم زمن الفتح باليمن، وأخذ عن علي، وابن مسعود. قال الشعبي: كان يوازي شريحاً في القضاء، قال العجلي: عبيدة أحد أصحاب عبد الله بن مسعود الذين يقرؤون، ويفتون الناس. مات سنة ٩٢.

٤ ـ **الأسود بن يزيد النخعي** عالم الكوفة، وابن أخي علقمة بن قيس: أخذ عن معاذ، وابن مسعود، وغيرهما، توفي سنة ٩٥.

٥ ـ **شريح بن الحارث الكندي**: استقضاه عمر على الكوفة، ثم علي من بعده، ولم يزل قاضياً حتى زمن الحجاج بن يوسف، واستعفي قبل موته بسنة، ولم نعلم قاضياً ظل يقضي بين الناس ستين سنة غيره. روى عن عمر، وعليّ، وابن مسعود. توفي سنة ٧٨.

٦ ـ **إبراهيم بن يزيد النخعي** فقيه العراق: روى عن علقمة، ومسروق، والأسود، وغيرهم، وهو: شيخ حماد بن أبي سلمة الفقيه كان من العلماء ذوي الإخلاص، وكان يتوقى الشهرة، ولا يجلس إلى اسطوانة، وقال عبد الملك بن أبي سليمان: سمعت سعيد بن جبير يقول: تستفتونني، وفيكم إبراهيم النخعي؟ وكان لا يتكلم في العلم إلا أن يسأل. مات سنة ٩٥.

٧ ـ **سعيد بن جبير مولى والبة**: سمع ابن عباس، وابن عمر، وغيرهما، وكان ابن عباس إذا حج أهل الكوفة، وسألوه يقول: أليس فيكم سعيد بن جبير، وكان لا يدع أحداً يغتاب عنده، قال ميمون بن مهران: مات سعيد بن جبير، وما على ظهر الأرض رجل إلا، ويحتاج إلى علمه. قتله الحجاج في فتنة ابن الأشعث سنة ٩٥.

٨ ـ **عامر بن شراحيل الشعبي** علامة التابعين: ولد في خلافة عمر سنة ١٧ كان إماماً حافظاً فقيهاً متفنناً روى عن علي، وأبي هريرة، وابن عباس، وعائشة، وابن عمر، وغيرهم، وهو: أكبر شيخ لأبي حنيفة ولي قضاء الكوفة. قال مكحول: ما رأيت أعلم من الشعبي، وقال أبو حصين: ما رأيت أحداً قط أفقه من الشعبي. وقال ابن سيرين لأبي بكر الهذلي: ألزم الشعبي، فلقد رأيته يستفتى، والصحابة متوافرون، وقال ابن أبي ليلى: كان الشعبي

صاحب آثار، وكان إبراهيم صاحب قياس. ومر ابن عمر بالشعبي، وهو يحدث بالمغازي، فقال: شهدت القوم، ولهذا كنت أحفظ لها، وأعلم بها مني. وروى عنه قال: كره الصالحون الأولون الإكثار من الحديث، ولو استقبلت من أمري ما استدبرت ما حدثت إلا بما أجمع عليه أهل الحديث. قال ابن عون: كان الشعبي إذا جاء شيء اتقاه، وكان إبراهيم يقول، ويقول، وكان الشعبي منبسطاً، وكان إبراهيم منقبضاً، فإذا وقعت الفتوى انقبض الشعبي، وانبسط إبراهيم. وروي عن الشعبي أنه قال: إنا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث، فرويناه، الفقيه: من إذا علم عمل. وكان الشعبي يكره القياس. توفي سنة ١٠٤.

ومن أهل البصرة:

١ ــ **أنس بن مالك الأنصاري خادم رسول الله ﷺ:** وله صحبة طويلة، وحديث كثير، وملازمة للنبي ﷺ منذ هاجر إلى أن مات، ثم أخذ عن أبي بكر، وعمر، وعثمان، وأبي، وعمر دهراً أخرج له البخاري ثمانين حديثاً، وخرج له مسلم سبعين حديثاً، وخرجا له معاً ١٢٨ حديثاً. توفي سنة ٩٣.

٢ ــ **أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي مولى امرأة من رياح من بطن تميم:** سمع من عمر، وابن مسعود، وعلي، وعائشة. روي عنه أنه قال: كان ابن عباس يرفعني، وقريش أسفل منه، ويقول: هكذا العلم يزيد الشريف شرفاً، ويجلس الملوك على الأسرة، مات سنة ٩٠.

٣ ــ **الحسن بن أبي الحسن يسار مولى زيد بن ثابت:** نشأ بالمدينة، وحفظ القرآن في خلافة عثمان، ثم كبر، ولازم الجهاد، ولازم العلم، والعمل، وكان أحد الشجعان الموصوفين حدّث عن كثير من الصحابة قال ابن سعد: كان عالماً رفيعاً ثقة حجة مأموناً ناسكاً كبير العلم فصيحاً جميلاً وسيماً، وهو: أحد الصادعين بالحق الذين لا يخشون في الله لومة لائم. مات سنة ١١٠.

٤ ــ **أبو الشعثاء جابر بن زيد صاحب ابن عباس:** روي عن ابن عباس أنه قال: لو أن أهل البصرة نزلوا عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علماً بما في كتاب الله، وروي عنه أنه قال: تسألوني عن شيء، وفيكم جابر بن زيد. قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً أعلم بالفتيا من جابر بن زيد. وروي: أن ابن عمر لقيه في الطواف، فقال له: يا جابر إنك من فقهاء البصرة، وإنك تستفتى، فلا تفتين إلا بقرآن ناطق، أو سنة ماضية، فإن لم تفعل هلكت، وأهلكت. مات سنة ٩٣.

٥ ــ **محمد بن سيرين مولى أنس بن مالك:** ولد لسنتين بقيتا من خلافة عثمان روى

عن مولاه أنس، وعن أبي هريرة، وابن عباس، وابن عمر، وغيرهم كان فقيهاً إماماً غزير العلم ثقة ثبتاً علامة في تعبير الرؤيا رأساً من الورع. قال مورق العجلي: ما رأيت أحداً أفقه في ورعه، ولا أورع في فقهه من ابن سيرين. توفي سنة ١١٠ بعد الحسن بمائة عام.

٦ ــ **قتادة بن دعامة الدوسي**: حدث عن أنس، وعن سعيد بن المسيب، وغيرهما: كان ضريراً قوي الحفظ. قال ابن سيرين: قتادة أحفظ الناس، وقال قتادة: ما في القرآن آية إلا، وقد سمعت فيها شيئاً. قال أحمد بن حنبل: قتادة أعلم بالتفسير، وباختلاف العلماء، ووصفه بالحفظ، والفقه، وأطنب في ذكره. وقال: قل أن تجد من يتقدمه. وقال قتادة: ما أفتيت بشيء من رأيي منذ عشرين سنة، ومع حفظه كان رأساً في العربية، واللغة، وأيام العرب، والنسب توفي سنة ١١٨.

ومن أهل الشام:

١ ــ **عبد الرحمن بن غانم الأشعري**: روى عن عمر، ومعاذ، وغيرهما بعثه عمر بن الخطاب إلى الشام ليفقه الناس، وهو: الذي تفقه عليه التابعون بالشام. كان كبير القدر صادقاً فاضلاً. توفي سنة ٧٨.

٢ ــ **أبو إدريس الخولاني عائذ الله بن عبد الله**: أحد من جمع بين العلم، والعمل أخذ عن معاذ بن جبل، وكثير من الصحابة، كان واعظ أهل دمشق، وقاصهم، وقاضيهم، قال الزهري: كان أبو إدريس من فقهاء الشام. توفي سنة ٨٠.

٣ ــ **قبيصة بن ذؤيب**: كان على خاتم الخليفة عبد الملك حدث عن أبي بكر، وعمر، وغيرهما. قال الزهري: كان قبيصة من علماء هذه الأمة، وقال مكحول: ما رأيت أعلم منه، وعن الشعبي قال: كان قبيصة أعلم الناس بقضاء زيد بن ثابت، توفي سنة ٧٦.

٤ ــ **مكحول بن أبي مسلم مولى امرأة من هذيل**: وأصله من كابل روى عن صغار الصحابة، وكان يدلس على الكبار ــ يعني: يروي عنهم دون أن يبين الواسطة بينه، وبينهم ــ رحل كثيراً في طلب العلم، فأدرك منه حظاً وافراً. قال الزهري: العلماء ثلاثة، فذكر منهم مكحولاً، وقال أبو حاتم: ما أعلم بالشام أفقه من مكحول. توفي سنة ١١٣.

٥ ــ **رجاء بن حيوة الكندي**: شيخ أهل الشام، وكبير الدولة روى عن معاوية، وعبد الله بن عمر، وجابر، وغيرهم قال مطر الوراق: ما رأيت شامياً أفقه منه، وقال مكحول: رجاء سيد أهل الشام في أنفسهم، وقال ابن سعد: كان رجاء فاضلاً ثقة كثير العلم، مات سنة ١١٢.

٦ ــ **عمر بن عبد العزيز بن مروان**: وهو: الخليفة الثامن من بني أمية ولد بالمدينة،

ونشأ في مصر، وحدث عن أنس بن مالك، وعن كثير من التابعين، وكان إماماً فقيهاً مجتهداً عارفاً بالسنة كبير الشأن ثبتا حجة حافظاً قانتاً لله أوّاهاً منيباً، وكان يقرن بعمر بن الخطاب في عدله، وبالحسن البصري في زهده، وبالزهري في علمه، وقال مجاهد: أتيناه لنتعلم، فما برحنا حتى تعلمنا منه. توفي سنة ١٠١.

ومن أهل مصر:

١ ـ **عبد الله بن عمرو بن العاص:** كان من أيام النبي ﷺ صواماً قواماً تالياً لكتاب الله طلابة للعلم عن النبي ﷺ علماً كثيراً، وكان يعترف له أبو هريرة بالإكثار من العلم، وقال: فإنه كان يكتب، وكنت لا أكتب، وكان خيراً مقبلاً على شأنه، ويلوم أباه على القيام في الفتنة، ويتأثم من القعود عنه خوف العقوق، فحضر صفين، ولم يسل سيفاً، وكان أصاب جملة من كتب أهل الكتاب، وأدمن النظر فيها، ورأى فيها عجائب. حمل عنه المصريون علماً كثيراً. توفي بمصر سنة ٦٥.

٢ ـ **أبو الخير مرثد بن عبد الله اليزني مفتي أهل مصر:** روى عن أبي أيوب الأنصاري، وأبي بصرة الغفاري، وعقبة بن عامر الجهني، وتفقه عليه، وعلى عبد الله بن عمر، وقال ابن يونس: كان مفتي أهل مصر في زمانه. توفي سنة ٩٠.

٣ ـ **يزيد بن أبي حبيب مولى الأزد:** روى عن بعض الصحابة، وأكثر روايته عن التابعين. قال أبو سعيد بن يونس: كان مفتي أهل مصر، وكان حليماً عاقلاً، وهو: أول من أظهر العلم بمصر، والمسائل، والحلال، والحرام، وقبل ذلك كانوا يتحدثون في الترغيب، والملاحم، والفتن. وقال الليث بن سعيد: يزيد عالمنا، وسيدنا. وقيل: إن يزيد أحد ثلاثة جعل عمر بن عبد العزيز الفتيا إليهم بمصر، وهو: سوداني الأصل، أبوه من أهل دنقلة، ونشأ بمصر.

وكانت البيعة إذا جاءت لخليفة، فأول من يبايع عبيد الله بن أبي جعفر، ويزيد بن حبيب، قال ابن لهيعة: مرض يزيد، فعاده الحوثرة بن سهيل أمير مصر قال: يا أبا رجاء ما تقول في الصلاة في الثوب، وفيه دم البراغيث، فحول وجهه، ولم يكلمه، فقام، فنظر إليه يزيد، وقال: تقتل كل يوم خلقاً، وتسألني عن دم البراغيث. وقال سعيد بن عفير: أرسل زبان بن عبد العزيز إلى يزيد: ائتني لاسألك عن شيء من العلم، فأرسل إليه: بل أنت، فأتني، فإن مجيئك إلي زين لك، ومجيئي إليك شين علي، توفي سنة ١٢٨.

ومن أهل اليمن:

١ ـ **طاوس بن كيسان الجندي:** من الأبناء سمع زيد بن ثابت، وعائشة، وأبا هريرة،

وغيرهم، وكان رأساً في العلم، والعمل قال عمرو بن دينار: ما رأيت أحداً مثل طاوس، وقال قيس بن سعيد: كان طاوس فينا مثل ابن سيرين في أهل البصرة، وقال الذهبي: كان طاوس شيخ أهل اليمن، وبركتهم، وفقيههم له جلالة عظيمة، وكان كثير الحج، فاتفق موته بمكة سنة ١٠٦.

٢ ــ **وهب بن منبه الصنعاني** عالم أهل اليمن: روى عن ابن عمر، وابن عباس، وجابر، وغيرهم، وعنده من علم أهل الكتاب شيء كثير، فإنه صرف عنايته إلى ذلك، وبالغ، قال العجلي: كان ثقة تابعياً على قضاء، توفي سنة ١١٤.

٣ ــ **يحيى بن أبي كثير مولى طيىء**: روى عن أنس بن مالك، وعن كثير من التابعين قال شعبة: هو أحسن حديثاً من الزهري، وقال أحمد: إذا خالفه الزهري، فالقول قول يحيى، توفي سنة ١٢٩.

هؤلاء الذين سميناهم أجل الذين كانوا يفتون الناس في هذا الدور، ويروون الحديث عن رسول الله ﷺ، ولم يكن عرف بين الناس الانتساب إلى فقيه معين يعمل بما ذهب إليه من رواية، أو رأي، وإنما كان هؤلاء المفتون بالأمصار المختلفة معروفين بالفقه، ورواية الحديث، فكان المستفتي يذهب إلى من شاء منهم، فيسأله عما نزل به، فيفتيه، وربما ذهب مرة أخرى إلى مفت آخر، وكان القضاة في الأمصار يقضون بين الناس بما يفهمونه من كتاب الله، أو سنة رسوله، أو رأي إن ظهر لهم، وربما استفتوا من ببلدهم من الفقهاء المعروفين، وربما أرسلوا إلى الخليفة يسألونه، كما حصل كثيراً في عهد عمر بن عبد العزيز.

ظهر في هذا الدور فرقة سماها المؤرخون: بالخوارج، وجرثومتهم الفئة الخارجة على عثمان بن عفان؛ لأنهم نقموا منه أشياء صنعها، فاستحلوا بذلك الخروج عليه، ثم قتله، ولما بايعوا علياً كانوا السبب الأكبر في اشتداد الأمر بين علي، ومعاوية حتى أدى الأمر إلى الموقعة الكبرى بسهل صفين بين فئتين هما: صفوة العالم الإسلامي، ولما دعا معاوية، وأصحابه إلى التحكيم رضوا به أولاً، ثم عابوا بعد ذلك، وقالوا: إنه كفر؛ لأنه (لا حكم إلا الله) وقد اتخذوا هذه الكلمة شعاراً لهم حتى صار يقال لمن يرى رأي الخوارج: أنه قد حكم، وقد جرت بينهم، وبين علي خطوب شديدة قاتلهم، وقاتلوه، فضعف بذلك مركزه أمام خصمه الذي كان في أطوع جند، وانتهى الأمر بمصرعه رضي الله عنه على يد واحد منهم، وهو: عبد الرحمن بن ملجم، ومن ذلك الوقت وجدت فرقة خاصة ذات شخصية ممتازة تعرف: بالشراة أخذوا هذا الاسم من قوله تعالى [سورة البقرة، الآية: ٢٠٧]: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْرِي نَفْسَهُ ٱبْتِغَاءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ﴾ وكان مبدؤهم العام: تولي الشيخين أبي بكر، وعمر، والبراءة من عثمان لما نقموه منه، والبراءة من علي لرضاه بالتحكيم، ومن معاوية؛ لأنه تغلب على المسلمين بغير رضا منهم، ووجد من ذلك مبدأ لهم في أمر الخلافة، وهو: أن الخلافة

أمر موكول للأمة تختار له من تشاء من أي بيت كان، ورفضوا اختصاص قريش بها، وأن الخليفة لا تجب طاعته إلا في دائرة الحدود التي عينها الله سبحانه في كتابه، أو في سنة رسوله المتبعة، فإن خالف برئوا منه، ووجبت معصيته، ولم يفرقوا بين كافر، وفاسق بل كل من تعدى حدود الله، فهو: فاسق، والفاسق كافر، ولهم ظواهر من القرآن تؤيدهم، وبذلك عدوا كل من ظاهر معاوية، ولم يبرأ من علي، وعثمان خارجاً من الملة، وهؤلاء هم: جمهور الأمة، فاستحلوا قتالهم، وقتلهم، ووجد من بينهم زعماء كبار قادوهم إلى قتال خلفاء الجمهور. وجرهم ذلك كله إلى آراء شديدة في الدين، وكانوا يأخذون بظواهر القرآن، ولا يقبلون من السنة إلا ما رواه من يتولونه، وعمدتهم في ذلك ما عرف من الأحاديث لعهد الشيخين أبي بكر، وعمر، ووجد من بينهم علماء كبار مفتون يرجعون إليهم إلا أن شدتهم على الجمهور، وعقيدتهم فيه جعلته ينفر منهم ومن كل من كان يتهم بأنه يرى رأيهم، فلا يروون عنه إن كان محدثاً، ولا يستفتونه إن كان مفتياً مع أنهم ربما كانوا أبعد الفرق عن الكذب؛ لأنهم يرونه كفراً، ومن أجل النفرة منهم أسقط بعض أئمة الحديث رواية عكرمة عن ابن عباس، فلم يخرج له مالك بن أنس، ولا مسلم بن الحجاج؛ لأنه اتهم برأي الخوارج، وضعف بعضهم رواية عمران بن حطان فقيه الخوارج، وشاعرهم لذلك السبب بعينه. ولم يبق الخوارج على اتحادهم زمناً طويلاً، بل دب إليهم دبيب التفرق لاختلاف آرائهم فيما يتعلق بمعاملة الجمهور، وكانت شدتهم، وحدتهم في زمن بني أمية، وصدر الدولة العباسية.

وحدثت أيضاً فرقة الشيعة، وهم: الذين بقوا على ولاء علي بن أبي طالب، وأهل بيته، ومبدؤهم الذين يعم جمهورهم: أن الخلافة حق لعلي استحقها بوصية من رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك كانوا يطلقون عليه الوصي، وأن الخلافة من بعده حق لبيه لا يخرجها عنهم إلا ظالم غاصب، وجر ذلك بعضهم إلى النيل من مقام الشيخين أبي بكر، وعمر؛ لأنهما غصبا علياً حقه، وجعلوا الإمامة من بعده لابنه الحسن، ثم لابنه الحسين لا يختلفون في ذلك، وبعد مقتل الحسين افترقوا فرقتين، فمنهم من جعلها في محمد بن الحنفية؛ لأنه أكبر أولاد علي من بعده، وغلب عليهم لقب: الكيسانية، وقد استعمل اسم محمد هذا في ثورة قام بها المختار بن أبي عبيد الثقفي ضد بني أمية، وعبد الله بن الزبير، وكانوا يطلقون عليه: المهدي، ولم تكن روح هذا الثائر دينية، كما كانت روح الخوارج بل كان دنيوياً، ومن أجل ذلك استحل الكذب لوصوله إلى أغراضه، ومن الشيعة من قصر الخلافة على أولاد فاطمة، فتولى بعد الحسين ابنه علياً زين العابدين، وهو: أحد الفقهاء في هذا الدور، وكان له حين توفي ولدان هما: محمد بن عليّ المعروف: بالباقر، وزيد بن علي: فولوا الباقر، وبعد وفاته افترقوا فرقتين. منهم: من تولى زيد بن علي، وهم المعروفون: بالزيدية، ومنهم: من استمر على ولاء بني الباقر، فنقلوا الإمامة إلى ابنه جعفر الصادق، وكان للزيدية رأي خاص في

الإمامة فإنهم لم يكونوا يتبرؤون من الشيخين؛ لأنهما وليا، فعدلا، وكانوا يقولون: إن الإمامة في بني علي من فاطمة لكن الإمام يتعين بالوصف، وينكرون أنه تعين في الوصية: بالاسم، كما تقول الجعفرية، فكانوا يرون: أن كل من دعا لنفسه من بني علي، وهو مستكمل لصفات الإمامة وجب اتباعه، ونصرته، ومن أجل ذلك قاموا مع زيد بن علي في ثورته زمن هشام بن عبد الملك، ولما قتل قاموا مع ابنه يحيى، ثم مع محمد المهدي المعروف: بالنفس الزكية بن عبد الله بن الحسين بن علي المنصور العباسي في صدر الدولة العباسية.

وجد في هذا الدور ثلاث فرق يجمعها التشيع، وهي: الكيسانية، والإمامية الزيدية، والإمامية الجعفرية، وكل فئة تتلقى علمها، ودينها عمن تنتمي إليه من الأئمة، ومن شايعهم، ولهم اعتقادات في هؤلاء الأئمة تختلف اعتدالاً، وغلواً، وغلو بعضهم في تأييد علي، وأهل بيته جرهم إلى رواية كثير من الأحاديث لا يشك أئمة الجمهور في أنها مكذوبة على رسول الله ﷺ، ومن أجل ذلك توقفوا في أن يقبلوا رواية لكل متشيع غال، أو داع إلى التشيع، كما توقفوا في قبول رواية الغلاة من الخوارج.

□□□